

أغنية للأرض ..

أيتها الأرض ..

التي أشتاق إليها بمجرد الابتعاد عنها

وأعصر جسدي فوقها حتى الذوبان فيها

وحين أمرغ وجهي بترابها ،

تتلاحق أنفاسي من شدة التمسك بها

أيتها الأرض المنايضة

حين تضغطين على جسدي المنتفض

أحرص على أن ألتصق بكل ذرة فيك

حتى نكون أنا وأنت جسدا واحدا

وبين آونة وأخرى ..

أصعد إلى قمم جبالك

وأخوص في أعماق بحارك

وأثوّه في صحاريك المشاسعة

لكن ما يردني إليك دائما

نظرة من عينيك المراضيتي ،

وقبله من فمك الذى بطعم الفاكهة

أيتها الأرض الكريمة

أنت تعطين بلا حدود

وأنا أتلقى منك بغير شبع

جائع إليك على الدوام

عطشان إليك قبل ارتوائى وبعده

من شدة قربى منك لا أكاد أراك

وبعيونى المغمضة ،

أتخيلك فى ألف صورة وصورة

روكسانا ، وأفروديت

كليوباتره ، وشجرة الدر..

كل المتماثيل التي جسدت أجمل نساء العالم

صاغها المضافون من هضابك الرخاميه

ثم غسلوها بعد ذلك بالمطر المنهمر

حتى أصبحت في بياض الثلج

ونعومة أوراق الورد

أيتها الأرض الساحرة

خرجتُ منك ، وإليك أعودُ

أنت بدائتي ونهايتي

أنت مهدى ومقبرتي

أنت أمي وحبيبتي

يمكنك إغراقى وانتشالى

يمكنك حرقى وإطفائى

يمكنك طردى واحتوائى

مهما ابتعدتُ فأنا قريب منك

مهما سافرتُ فأنت محطتى القادمه

مهما انخدعتُ فأنت الأصل والحقيقه

أنا حر ، لكننى مقيد بانتمائى إليك

أنا برءاء ، لكننى متهم بالوقوف فى غرامك

أنا متفائل ، لكننى أخشى المسقوط فى أحد آبارك

أيتها الأرض .. الحانية والمستبده

مهما انتزعتِ ثوبك الطويل من يدي

ومهما أصررتِ على عدم استقبالي في قصرِك

ومهما قلت للجميع :

إنك لم تعودى تعرفيننى

فسوف أظل متمسكا بك

طارقا بكل قوتى على بابك

منشداً أغنياتى فى حدائقك

معلنا لكل الناس والأشياء .. حبى لك

لأننا - أنت وأنا - مثل الليل والقمر

مثل الشمس والنهار

مثل البحر والشاطئ

بدأنا معا ..

وسوف تكون نهايتنا أيضا .. معا !

نخلة الوفا

فى قرينتنا نخلة

تعود الناس أن يطلقوا عليها : نخلة الوفا

وهى طويلة جدا ومعمرّة

ويقال : إن جد جدى هو الذى غرسها

وأن بلحها هو الأحدى على الإطلاق

كنا ونحن صغار نتسلقها لأكل منه

حتى قبل أوان نضجه

لكن الكبار كانوا ينهروننا ، ويقولون :

— لماذا تستعجلون ؟!

توجد هذه النخلة

فى موقع وسط تماما بين حقليّ

لأخوين متنازعيْن

و ذات يوم قررا أن يشقاها نصفينْ

ويأخذ كل منهما نصيبه من أخشابها

لكن حكيما في القرية

عرض أن يشتريها منهما

وراح يجمع التبرعات من أهل القرية

ومن يومها ..

أصبحت النخلة ملكا مشاعا

بين أهل القرية كلهم

حكايات كثيرة تروى عن هذه النخلة

ويقال إنها شهدت العديد

من قصص الحب والتضحيات

تحتها .. كان يلتقى العشاق فى بداية حبهم

ثم بعد أن يتزوجوا، وينجبوا ..

يأتون إليها لاستعادة ذكرياتهم !

وكان بعض الأحباب يقسم تحتها

أن يظل مخلصا لحبيبته

حتى لو تزوجت من غيره

لهذا أطلقوا عليها : نخلة الوفا !

وهناك حكاية حزينة

لشباب رياضى ، مفتول العضلات

صعد ذات يوم الى أعلاها

وفجأة هبت ريح عاصفة

هزته بشدة ،

فسقط على المارض جثة هامدة !

أصبحت النخلة من معالم القرية

بل أبرز معلم فيها

وحين زحفت البيوت على الحقول

وأحاطت بها

صار الناس يشيرون الى بيوتهم

بأنها المتى تقع شرق النخلة أو غربها ..

منذ عدة سنوات ..

لم تعد النحلة تطرح بلحا

وقيل إنها شاخت ، وضي طريقها للموت..

لكن الكثير من أهل القرية

وخاصة الأطفال ،

لم يصدقوا شيئا من ذلك

إنهم يعتبرونها تماما مثل أمّ لهم

باستثناء واحد ..

أنها لا تحكى لهم حكايات ما قبل النوم !

لا يدرك أحد طول النحلة الحقيقي

إلا إذا جلس تحتها ،

وراح ينظر إلى أعلامها ..

فهي عجوز .. لكنها صلبة ومتماسكة

وجذعها المملية بالتجاهيد

لم ينحن أبدا رغم هبوب الريح ،

ومرور الزمن ..

لكن غرابا وزوجته اختارا عشهما في أعلامها

وكثيراً ما يحلو لهما

أن يراقبا الجالسين تحتها

ثم يهبطا بعد انصرافهم ،

ليلتقطا ما خلفوه من بقايا طعامهم

منذ أيام ..

زارنى أحد أقاربي من القرية

وكالمعادة رحت أسأله عن أحوال الأهل والأصحاب

وبالمطبع سألته عن النخلة ؟

فوجئت بأن الحكومة قررت إزالتها

لأنها تعترض طريق المسكة الحديد المقترح ..

كان الرجل فرحا للغاية ،

نظرا لمرور القطار على القرية

أما أنا .. فقد غمرنى حزن عميق ..

عميق جدا ..

لأننى كنت واحدا ممن اقساموا تحت الشجرة ،

بان يظلوا أوفياء لحبيباتهم ..

حتى ولو تزوجن من آخرين !

حفنة من تراب القمر

كانت حين تهل من شرفتها

أجمل من كل بنات المحى على الإطلاق .

وكانت تفضل

أن ترتدى فساتينها بألوان زاهية ،

ملبئة بالدورود الحمراء والمصفراء والمزرقاء .

ومن عاداتها

أن تجمع شعرها الأسود الكثيف

فى ضفيرة مكتنزة ،

تلتف من خلف عنقها

وتتدلى على صدرها .

وكانت تزين عنقها بسلسلة ذهبية ،

فى وسطها قلب صغير ،

يحلو لها أن تضعه فى فمها .

أما ابتسامتها فكانت مثل الدنيا حين تضحك ،

ولها على جانبي خديها

غمازتان يزيدها حسنا .

وقد اتسم سلوكها
مع أسرتها وجيرانها

بالأدب الجم والمخلق الطيب .

وكانت رغم حيائها الشديد ،
تدلى برأيها المصائب فيما يدور حولها ،

لذلك كان إخوتها ،

بما فيهم الأكبر سنا ،
يلجأون إليها لأخذ نصائحها ،

والعمل بها.

أحببتها منذ اللحظة التي رأيتها .

ومن حرصى الشديد على هذا الحب ،
لم أصرح به أحدا من أصدقائى .

كنت بين العاشرة والحادية عشرة ،

وكانت هى تصغرنى بسنة ونصف ،

لذلك فقد نمونا معا ،

وكنيت أتابعها وهى تذهب إلى المدرسة

أو تعود منها ،

وحين تلتقى أعيننا

أشعر برعشة تسرى فى كل جسدى .

وفى أحلامى كنت أراها كملاك ،

وليس كإنسانة من لحم ودم .

أما لحظة الإعلان عن الحب ،

فلم تكن بالكلمات ،

وإنما من خلال نظرة طويلة
وعميقة

ومصممة

قام بها كل منا ،

ولم يتراجع ،

حتى بحنا بكل ما كان مختبئا

في أعماقنا السحيقة .

ساعتها أيقنت أنها تبادلني نفس المشاعر ،
والعواطف ،

والأحاسيس .

ويومها انطلقت مبتعدا في المضواحي
لكى أسترجع وأستمتع وحدى

بكل تفاصيل تلك النظرة ،

التي تأكد لي فيما بعد ،
أنها لا تحدث في العمر كله

سوى مرة واحدة ..

مرة واحدة فقط !

كنت بحكم صداقتي لإخوتها

أتردد على مسكنها ،

وصرت أتبادل معها

بعض الأحاديث الخاصة ،

ولما سيما عندما يخلو لنا الجو.

أطلعتني على كل ما تحبه
أو تكرهه :

ماذا تأكل ؟

ومتى تنام ؟

وكيف تختار فساتينها ؟

ومن هو الأقرب إليها من أسرتها ؟

وبالمطبع لم يخف حالنا

على أحد إخوتها المخبثاء ،

فكان يلمح لى أحياننا ببعض ما تقوله عنى ،

لكننى كنت أحاول المتجاهل ،

رغم سعادتى به .

دار الزمن دورته ،

ومرت السنوات ،

فإذا بها تتجاوز السادسة عشرة ،

وتبدو كأنها فى العشرين .

وبالطبع بدأ يظهر بعض الخطأب والعمرسان

من ذوى الحيشية .

كانت تحدثنى عنهم ،

وكان يطمئننى رأيها السلبى فى كل منهم .
أما أنا ..

فكنت أصمت ولما أرد .

وماذا أقول وأنا فى آخر المرحلة الثانوية ،
وليس من قدرتى ولما من حقى

أن أقدم على الزواج ؟

لكننى بمجرد التحاقى بالجامعة

وانشغالى بها

سمعت خبر خطبتها ،

ثم زواجها ،

وانتقالها مع زوجها

إلى مدينة أخرى .

أسرعت بالعودة إلى منزلنا

وأغلقت على نفسي باب غرفتي

ووجدتني أنخرط في بكاء شديد ،

ذرفت فيه دموعا غزيرة ،
وكنت أسمع لنشيجى صوتا عاليا

رحت أكتمه قدر جهدى

حتى لا يسمعه أحد من أسرتى .

لكن أمى هى التى لاحظت ذلك

فراحت تكثر لى من المدعاء

بالمهداية وصلاح الحال.
ومن جانبى حاولت أن أنسى ،

فخفضت من حزنى بالمذاكرة ،

والانشغال بالانشاط الجامعى

بعد عام كامل ،

وبينما كنت واقفا كعادتى تحت شرفتها ،

فوجئت بها تنزل من السيارة ،

يعاونها زوجها فى حمل حاجيات ابنتهما الصغيرة

وقبل أن تدخل من باب المنزل

التفتت نحوى فى نظرة محايدة :

لأ هي بالمغاضبة ولأ بالمعاتبة ،

وكأنها كانت راضية تماما بماحدث !

رجعت الى منزلنا

الذى كان يعلوه سطح فسيح ،

وجلست فى ركن منه
أنظر إلى القمر ،

وهو فى غاية اكتماله .

كان مستديرا وكبيرا ومضيئا وسط الظلام ،

لكننى لاحظت به بعض البقع السوداء ،

وبعضها غائرة وعميقة .

كان فيما يبدو حزينا مثلى .

وساعتها تمنيت

أن يمنحني حفنة من ترابه المفضي

لكي أرشها على المقبر

الذي دفنت فيه حبي الأول !

دمعة على النيل

من وقت لآخر
 وخاصة فى الأعياد وشم النسيم
 كنت أذهب مع أبى وأمى إلى شط النيل
 وهناك .. نختار مكانا معشبا لنجلس فوقه
 وبعد فترة..
 تقدم أمى لنا الطعام الذى أعدته
 وبعض الحلوى
 كنت أستمتع كثيرا بتلك الجلسة
 التى نتحدث فيها ، ونأكل ،
 ونحن ننظر إلى امتداد مياه النيل
 التى كانت تتلون مرة بالزرقة ،
 وأخرى بالخضرة ،
 وأحيانا تكون بنية بلون الطمى
 لكنها فى كل الأحوال
 كانت تبعث فى روحى
 وأنا بين أمى وأبى
 سعادة لا حدود لها!

**

مررت الأعوام
 وكما يقولون:
 لا يبقى شء على حاله
 ماتت أمى
 وبعدها بعام واحد
 مات أبى
 ووجدتني أذهب الى نفس المكان
 هناك على شط النيل
 ولما أغادره
 حتى تذرف عيناى بعض الدموع
 عندها أحس ان بعض الألم قد خف
 وأن لوعة المراق .. قليلا قد تراجع
 **

ثم مررت أعوام كثيرة
 أبعدتني عن عالم الطفولة الدرهيف
 لكننى لم أتخلف أبدا
 عن عادة جلوسى على النيل
 المزارق الوحيد..

أننى أصبحت أجلس فى أرقى الكافتيات
ومنها أراقب البواخر السياحية
التي تنساب على صفحته الملساء
وحين يحل المساء
أستمع برؤية الأضواء
المتألئة على الضفة الأخرى
ولمعان أضوائها على مر آتة السوداء..

**

وعلى الرغم من قراءتى حول منابع النيل
وحقائق التضاريس الإفريقية ،
والتي تؤكد أنه يأتى من تجمع الأمطار
المتساقطة بغزارة على هضبة الحبشة
ثم يمر بالسودان
فإن كلمة أبى الحبيب
ما زالت تتردد فى أعماقى:
النيل يابنى .. ينبع من الجنة
وقد وهبه الله لأرض مصر الطيبة !

**

وذات صباح حزين
كنت أمر على بائع الجرائد
فوجدت عناوينها الحمراء
تحدث كلها عن سد ضخم
تقيمه الحبشة على أرضها
لتستفيد منه فى إنتاج الكهرباء
وهذا يعنى..
أن جزءا كبيرا من مياه النيل
سوف تنقطع عن المجيء إلى مصر
ولم أتمالك نفسى
فقد اغرورقت عيناي بالدموع
وسقطت منها دمعتان ساخنتان
إحداهما على أبى وأمى ،
والثانية على النيل !

عجائب المتحولات

فى حدائق الذنوب
ظللت أتمتع طويلا بكل أنواع المفاكهة
التي تتدلى من غصون الأشجار
وأستنشق بملء صدرى
مختلف روائح العبير
التي تبتها الزهور والدورود
وكننت إذا هبط الليل
أجلس وسط صحبة مختارة
نستعرض معا صنوف المملذات
ونوازن بين طعومها المتنوعة
وكل منا خبير فى مجاله
وصريح فى نقل تجربته للآخرين
ولما يكاد هؤلاء يستمعون إليه
حتى يطبقوا ما سمعوه فى اليوم التالى
وهكذا كانت المملذات تتناقل

والذنوب تكثر وتتراكم
أما أيام العمر..
فكانت تنساب من بين أصابعنا
كالماء الجارى

ونحن لا نغيرها المتفاتا
فالشباب موفور
والصحة مواتية
وكل ما نرغب فيه متاح..

و ذات يوم
سقط أجدنا مريضا
وتوفى آخر فى حادث مفاجئ
ولم يكن أمامنا مفر
من عقد اجتماع طارئ
نبحث فيه أمورنا
ونراجع أنفسنا
قال أجدنا:
— لقد بدأت أستعين بالمقويات
وقال آخر:
— والطبيب أئذرنى بارتفاع مستوى الضغط
وقال ثالث:
— أما أنا فهناك مشاكل حادة مع زوجتى

كان اجتماعا بائسا وحزينا
وحين انفض ، فضلت أن أعود لمنزلى ماشيا
ولم أدرك أننى قطعت عدة كيلومترات
لأننى حين وصلت المنزل
كنت قد استهلكت كامل قوتى
ودون أن أخلع ملابسى
وحتى الحذاء
المقيت جسدى المنهك على السرير
واستغرق فى نوم عميق
عميق جدا

تخلله حلم مفزع:

وجدتني أسير في صحراء شاسعة
كلها رمال وكثبان
وليس بها واحة ، ولما نبع ماء
بل شمس ملتهبة
وغيار حاد يسفع الوجه من كل اتجاه
ويستقر بكل استفزاز في العينين
واصلت المسير حتى بلغت تلة عالية
فصعدتها لكي أشرف على ما خلفها
لعلني أرى مكانا مأهولا ألجأ إليه..
لكنني حين بلغت قممتها لاهثا
انزلقت قدمي في هوة سحيقة
ملينة بالمصخور المصدلة ،
ونباتات الصبار الجاف
حاولت أن أصيح ، فلم يطاوعني صوتي
كان مبحوحا تماما
وفجأة بدأت اسمع صليل أفعى مجلجلة
ثم وجدتني تنهض واقفة أمامي
وتتهيا لرش سمها في وجهي
حاولت أن أرجع للخلف
فوجدت قدمي تسوخان في الرمال

ولم ينقذني سوى صوت زوجتي
وكانت قد خلعت حدائي
وراحت تعدل جسدي على السرير..
نهضت أشكرها بشدة ، فانددهشت
قلت لها مرارا : لقد أنقذتني فعلا

أما أنا فرحت أستعيد بالله..
الله الذي ابتعدت عنه طويلا
والذي أتوسل إليه اليوم
أن يغفر لي ذنوبي
وأن يأخذ بيدي
لكي أتحوّل إلى طريق جديد..

كيف تعرف أنها تحبك ؟

كَلِّف تعرف أنها تحبك ؟
إذا نظرت إليها فجأة
فوجدتها كانت تنظر إليك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا أعدت فطورك
قبل أن تنهض من فراشك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا قدمت لك كوب المشاي
وتحتة طبق
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
حين تودعك بقبلة
وأنت ذاهب إلى العمل
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا لوححت لك من المشرقة
وأنت في الطريق إلى عملك
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟
إذا سارعت بإغلاق التلفون
عندما تشعر بانشغالك في العمل
**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا كانت فى أبهى زينتها

وهى تفتح لك الباب

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

حين تضع رأسها فى حجرك

وأنت تشاهد التليفزيون

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

حين تظهر الاحترام لأصدقائك

وتتخفظ كثيرا عند زيارة خصوصك

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا تجنبت المشجار تماما

مع نساء جيرائك

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

حين تجعل أقاربك

يشعرون بأنها تحبهم .. أكثر منك

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

حين تقتصد من مصروف البيت

وتقدمه لك عند الحاجة

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا احتضنتك من الخلف

ووضعت كفيها على عينيك قائلة :

من أنا ؟!

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا ذاولتك شيئا من طبقها

وأنت لم تكمل طبقك بعد

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا رتبت ملابسك

ووضعت لكل بدلة

المكراشة التى تناسبها

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا صحبت الأطفال لطبيب الأسنان

حين تكون مشغولا

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا أسكتت الأولاد تماما

عندما تغفو فى وقت قيلولتك

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا توقفت عن المحكى

حين تشعر أنك غير مهتم

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا لم تظهر المضجر بتاتا

من هوايتك المفضلة

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا عرفت درجة حرارتك

دون أن تستخدم الترمومتر

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا تخلت عن زينتها تماما

وأنت مريض

**

كيف تعرف أنها تحبك ؟

إذا رفضت إلحاح أهلها بكل حسم

ولم تتزوج أحدا بعد وفاتك!

شرفة على بحر إسكندرية

فى شرفتى المتى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
يطيب لى أن أجلس
لساعات طويلة
أقرأ فى كتاب
أو أنظر إلى زرقة مياه البحر
الذى يتلامس هناك
فى نهاية الأفق
مع السماء المصافية

بجوار شرفتى المتى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
تقيم خلال شهور الصيف
أسرة مصرية
متعددة الأجيال
المجد والمجدة
والأب والأم
وابنتهما المشابة الجميلة
وولدان صغيران
أحياناً تجتمع الأسرة كلها
وفى أحيان أخرى
تجلس المشابة وحدها
وهى تنظر مثلى إلى زرقة مياه البحر
ومن الغريب
أنها لا تلتفت نحوى أبدا
لكنه تترك شعرها
يتطاير مع نسائم البحر
ويتحدث معى بدون انقطاع!

فى شرفتى التى تطل
 على قطاع صغير
 من بحر الإسكندرية
 أحول أن أطرح من رأسى
 كل هموم القاهرة
 وأن أنسى تماما
 كل الإساءات التى وقعت فى حقى
 كما يحلو لى
 أن أغوص عميقا فى الماضى
 لكى أستخرج منه
 بعض الملاحظات الجميلة
 التى عشتها
 فى فترات صباى وشبابى
 لكن بعض الأسماء مع الأسف
 بدأت تتلاشى
 والوجوه لم تعد واضحة
 كما فى المصور الفوتوغرافية
 التى اصفرت ، وتآكلت أطرافها..
 حينئذ أدرك أن الماضى لن يعود
 وأن المشابهة التى تجلس فى الشرفة المجاورة
 وظهرها لى
 هى الحقيقة الوحيدة
 التى يبلى شعرها رذاذ البحر
 وتفرده الريح فى اتجاهى..

فى شرفتى التى تطل
 على قطاع صغير
 من بحر الإسكندرية
 يمتلئ الشارع بالأعاجيب
 بائع غزل البنات بزمارته المزعجة
 وتاجر الروباييكيا
 بميكرفونه المصاحب
 وموزع الأنابيب بدقاته الحادة
 والشباب الذين يمدون المسجاجيد
 على أرضية الشارع
 لكى يعرضوها على السكان
 بحناجرهم العالية
 وأحيانا بعض الحوالة
 الذين ينفخون النار من أفواههم!
 هذه وسائل عيشهم
 وهم يفعلون ذلك
 لجذب انتباه السكان
 أما أنا..
 فلا يجذبنى سوى رؤية جانب واحد
 من وجه المشابهة الجميلة

التي تقف وسط أسرتها
للفرجة والماستمتع!

في شرفتي التي تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
أستطيع أن أشاهد بوضوح
تقوس البحر في شبه دائرة
وهذا يعنى
أننا نعيش فوق كرة كبرى
ويقال إنها تدور حول نفسها
كما تدور حول الشمس
لكننى لا ألاحظ أبدا هذا الدوران
ولعل هذا أفضل
حتى لا أفقد توازننى
وأسقط على الأرض
إن كيف يستطيع أن يتماسك إنسان
وهو يقف على كرة متحركة ؟!

في شرفتي التي تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
تدخل المشابة إلى شقتها
ثم ما تلبث أن تعود
وبيدها كوب شاي
تضعه بعناية
على حافة المشرفة
وتبدأ في ارتشافه بهدوء
دون أى المتفات نحوى..
أعلم أنها تعرف
كم أتوق لرؤية وجهها
وأن ألتقى بعينيها
في نظرة طويلة وعميقة
لكنها حريصة جدا
ولما تسمح لى
إلا بمتابعة شعرها المتطاير
مع نسيمات البحر
التي تهب علينا معا
بدون انقطاع!

في شرفتي الى تطل
على قطاع صغير
من بحر الإسكندرية
أضاجاً ذات صباح
يحركة دائبة
في المشقة المجاورة

إنها نهاية الصيف
وأصحابها يستعدون للمغادرة
يلملحون الأثاث
وينزلون الستائر
ويستدعون السيارة
التي تحمل الحقائق
وهاهم يتخذون مقاعدتهم
والشابة بجوار شبلك السيارة
تجلس معتدلة القامة
وبصرها دائما للأمام
دون أن تلتفت
إلى البيت الذى كانت تسكنه ،
ولما إلى جارها
الذى لم تنظر أبدا
فى عينيه!

بحثا عن الزمن المفقود

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذي أصحو فيه من النوم
فأجد الصبح قد تنفس
والليل ضم ستائره ، ورحل
وبعض البلابل تملأ الفضاء بصفيورها
والندى يترك قطراته على أوراق الزهور
وبائع الألبان يطرق الأبواب
فتفتح له فتحات المحى
على جفونهن بقايا النعاس
ويأيديهن الأواني الفارغة
وهن يقلن له بصوت رقيق:
— صباح الخير — لا عم مفتاح

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كنا نتجمع فيه عند جرس المضحة
ونقسم أنفسنا إلى فريقين
ثم نبدأ المنافسة فى أى لعبة
حتى لو كانت المجرى والاختباء
وعندما نتعب من اللعب ،
ويبلغ بنا الإرهاق مداه
نتوجه إلى مقصف المدرسة
ونشتري بعض المثلجات
لنطفئ بها حرارة أجسامنا

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أحب فيه فتاة ، وتحبنى
ونتبادل النظرات من بعد
هى فى شرفتها
وأنا واقف على الناصية
وحين يظهر إلى جوارها أحد والديها
أتظاهر بالنظر إلى السماء..
أما هى فتظل حاضرة فى قلبى
حتى بعد أن تغادر الشرفة!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى أرتاد فيه الجامعة
محملاً بالآمال الكبرى
والطموحات التى لا حدود لها
أقبل على مناجم المعرفة ، فيعذبني امتلاكها

وأهجرها في أحيان أخرى ،
 فيعذبني أيضا هجرها
 حتى تظهر زميلة ، ذكية جدا
 تدرك سر عذابي ، فتأخذ بيدي
 وتظل تشجعني..
 حتى أصل إلى أبعد مدى ممكن!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
 الذي أحصل فيه على الوظيفة التي تناسبني
 وهي متعددة الدرجات
 مثل المسلم الذي يصعد إلى معبد بوذي
 في مرتفعات التبت
 وكلما صعدت درجة
 امتدت تحت قدمي عشرات الدرجات
 لكنني كنت أشعر بسعادة بالغة
 حين أنظر خلفي..
 فأجدني قد قطعت شوطا هائلا
 وتغلبت على عقبات لم تكن أبدا في الحسبان.

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
 الذي يمتلئ بالأقارب الطيبين
 ويكون مركزه : أبى وأمى
 وملتقى كلنا حول مائدة الطعام
 ثم نتناول المفاكهة
 ونختم بالشاي
 وبعد جلسة طويلة وحميمة
 نودعهم عند الباب ، قائلين :
 — إلى لقاء قريب!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
 الذي أجلس فيه مع أصدقائي
 أصدقاء المصدق والمصفاة

نتحدث عن كل ما يهمنا ،
وكذلك ما لا يهمنا
دون أن نخفى شيئاً
فنحن على ثقة من أن ما نقوله
لا يتسرب خارج دائرتنا
ولما يمكن لأحد أن يستغله ضدنا

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذي يطرق بابي في منتصف الليل أحد الأصدقاء
لكي يخبرني أن صديقاً لنا
قد تعرض لحادث ، وهو الآن بالمستشفى
وعلى الفور ، نذهب إليه
ونظل هناك حتى يطلع الصباح
ويقول لنا أحد الأطباء :
— لا داعي للقلق .. سيكون بخير .

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
حين كنا نتجمع حول الراديو
ونتابع خلال شهر رمضان مسلسل "ألف ليلة"
وفى شهر آخر مسلسل "الظاهر بيبرس"
وفى الصباح ، نستمع لحديث ديني سمع
من الدكتور دراز ، أو الشيخ شلتوت
ومع المساء ..
نروح عن القلب بسماع أم كلثوم ،
وعبد الحليم حافظ .

ما زالت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذي كان فيه أجمل مكان بالقاهرة
هو "وسط البلد"
وكان هو مكان دزھتتنا المفضل :
الميادين فسيحة
والشوارع نظيفة
والمحلات تعرض بضائعها بدون تكديس
والمقاهى تستقبل روادها بكل ترحاب
والسينما المكيفة تنقذنا من شدة الحر

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى لا تحتوى فيه نشرة الأخبار
على أى حادث إرهابى
أوشخص يفجر نفسه فى سوق
أو شاب ينتحر بأعلى عمود نور
أو مجموعة مهاجرين غير شرعيين
ينقلب بهم المركب فى وسط البحر!

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كانت فيه أصوات قارئ القرآن..
مصرية خالصة.
محمد رفعت ، وشعشع ، والمبنا ، والمنشاوى
ثم الدرائع مصطفى إسماعيل
وأخيرا الصوت الذى هبط إلينا من السماء
عبد الباسط عبد الصمد!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى لم نسمع فيه قط
عبارة "الفتنة الطائفية"
لأن المسلمين والأقباط
استمروا لمئات السنين
متعايشين ومتداخلين وممتزجين..
والله يجازى من فرقهم
وما زال يسعى لتفريقهم!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود

الذى كان لدينا فيه من الأعياد الدينية :
عيد الفطر وعيد الأضحى
وكنا فى مصر ، ويدون شغب أو تعقيدات
نحتفل بيوم شم النسيم

ورأس السنة الميلادية
ورأس السنة الهجرية
وعيد الجلاء ، وأمثاله من الأعياد الوطنية ..
ولم يكن أحد من كبار العلماء حينئذ
يحرّمها علينا ،
أو يكفر من يحتفل بها !!

**

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذى كنت أقرأ ، بل أعيش فيه ، مع
دواوين شوقي وحافظ وإيليا أبو ماضي ..
وروايات السباعى وإحسان ونجيب محفوظ ..
ورائحة هيمنجواى (العجوز والبحر)
ومطولة تولستوي (الحرب والسلام)
ومبكية فيكتور هيجو (البؤسا)
وقصص تشيكوف القصيرة والمساخرة
كل هذه وأمثالها كثير
كانت هى مصدر سلوى وسعادتى معا
فى غياب التلفزيون
لكن حين ظهر هذا الملعون
انتزعنى منها كلها !!

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
حين يفاجننى النوم بحلم

أرى فيه أمى وأبى وزوجتى

ونظّل نتحدّث في موضوعات كثيرة
ونناقش آراء غاية في الدقة
لكنني حين أصحو
لا أجدني أتذكر شيئاً منها
فقط الوجوه ، والصوت ، ونظرات الحنان
وهذا بالضبط ما أفتقده في حياتي الحاضرة!

* *

ما زلت أبحث عن ذلك الزمن المفقود
الذي حلمت فيه له ذات ليلة
برؤية الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .
كنت فتى صغيراً في حوالى العاشرة
أدرس صباحاً في مدرسة الجمالية
وأحفظ القرآن عصراً في مسجد المستعلى بالله
وحين أهل علينا
قام أبى وأمى فرحبا به ، وقبلا يده
وعندما هم بالجلوس على طرف براندة
في البيت الريفى الذى كنا فيه
أسرعت بوضع منديل ليجلس عليه ،
ولكى أخذه بعد ذلك وأمسح به وجهى
عشت طويلاً أحتفظ لنفسى بهذا الحلم النادر
وأنا فى انتظار متلهف
لكى أراه مرة أخرى

والموتى أيضا يزوروننا..

تعود الكثير منا أن يزور الموتى
 لكن من قال : إن الموتى أيضا لا يزوروننا!
 إنهم حين يقررون ذلك
 ينتظرون لحظة مناسبة تماما
 خلال نومنا العميق
 ويدخلون إلينا من الأبواب المغلقة
 وأحيانا من النوافذ
 وقد ينسلون من وسط الجدران
 وهكذا نجدهم أمامنا ومعنا : وجهها لوجه
 لكنهم لا يقبلون علينا
 ولما يستمرون بيننا وقتا طويلا
 إلما إذا رحبنا جيدا بهم
 وأشعرناهم بأننا كنا بانتظارهم
 حينئذ يجلسون
 ويتركوننا نتحدث إليهم
 ونشكو لهم
 ونذرف دموعنا الساخنة على صدورهم

ومن الغريب
 أنهم لا يشعرون بالحزن مثلنا
 بل إن وجوههم تكتسى بحالة من الرضا
 ليست مثل المتى توجد على وجوهنا
 ويبدو أنهم يعتبرون أن ما حدث لهم
 أمر طبيعي كان ينبغي أن يحدث..
 لذلك فإنه لا يستحق
 كل هذا الحزن الشديد
 الذي يغمرنا نحن بعد فراقهم

والملاحظ .. أنهم لا يتحدثون كثيرا ولما قليلا
 عن وجودهم هناك
 إما لأنهم راضون به تماما
 أو لأنهم يدركون جيدا
 أننا لن نقدر على تصور شء منه!
 أما نحن..
 فلا نكاد نتوقف عن الحديث إليهم
 ونشكو من أدق التفاصيل في حياتنا المضطربة
 وكلما حاولنا الإمساك بشياهم الشفافة
 أو المضغط على أصابعهم الرقيقة
 تخلصوا من برفق
 وربتوا علينا في حنان بالغ

تماما كما يحنو الكبار

على أطفال صغار!

إن جلوسهم معنا ،

وإصغاءهم لنا

يجعلنا نحسب أنهم سوف يبقون بيننا

لكننا نفاجأ بأنهم يتأهبون للذهاب..

وبينما نحاول التشبث بهم

نجد النوم قد طار من أعيننا

وحينما نصحو

لا نجدهم قد رحلوا فقط عنا

وإنما تركوا في حلوقنا مرارة مركزة

وفى صدورنا حسرة لا تنمحي!

ولكم نحاول أن نسترجع كل ما قالوه لنا

أو حتى شيئا قليلا منه

لكنه يكون قد تلاشى..

ويظل يتلاشى مثل السحابات الخفيفة البيضاء

التي تدفعها الريح

في اتجاهات متباعدة!